مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ـ المجلد ١١ (العددان ١و٢)١٤٠٩-١٩٨٩م

الاغتراب كنقيض لتحقيق الذات

الدكتور عبد الكريم حسن
أستاذ مساعد في
كلية الآداب ـ جامعة تشرين

بشير ناصر
طالب دراسات عليا في
كلية الآداب ـ جامعة تشرين

بعد أن أحصي اثنين و سبعين معنى من معاني الاغتراب التي ورد استخدامها في الكتب التي تيسّرت لي قراءتها، أشير الى أن تلك الاستخدامات الكثيرة لا تفيدنا في شيء، ذلك أن معرفة المعاني لا تكون في تعدادها المعجمي، بل ان من مستلزمات المعرفة الموضوعية معرفة البواعث التي آلت الى ذلك، أعني الاغتراب .

ولما كانت معرفة الاغتراب، بوصفه تجريدا لا تتم "في ذاته" : مما هو، فحسب بل مما ليس هو: من جوهر الشخصية الانسانية ، فقد خلصت الى أن أقدم تصورا خاصا أوْطر فيه مفهوم الاغتراب، مستفيدا بذلك من مختلف وجهات النظر الفلسفية، ليس من قبيل الاصطفائية- التلفيقية Eclectisme في محاولة منا لمقاربة ما يخص واقعنا العربي فمن خلال معرفة الشخصية: الذات المحققة بمكوناتها الواقعية نتعرف على واقعية الاغتراب ، بغية تجاوزه

وانني لأحسب بهذا التصور أنني رددت زعم "ر . شاخت" الذى يفضي الى أنه من غير الممكن أن يكون هناك تصور شامل لمعنى الاغتراب .

وهو تصور ـ على لغة الجاحظ ـ "حرمنا فيه من التوفيق(ربما) و لكن لم نحرم من الاجتهاد

ان رحلة البحث في عوالم الاغتراب هي نفي بمعنى من المعاني، و ضياع، اذ ان عوالمه متشعبة المعالم، ووجوده، في عصرنا الحاضر، يشمل الوجود .و مفهوم الاغتراب بهذا، لا ينقاد للتعرف بيسر و سهولة .

ومما يزيد في ضبابية هذه المقولة كثرة القائلين في رحابها على اختلاف مشاربهم الثقافية الطبقية و مواقفهم الايديولوجية اذ اننا نحصل على ألفاظ عديدة يشيرسياق استخدامها على أنها "اغتراب" من قبيل" (الضياع) القلق و الاضطراب و التردد / الاستلاب و الاستغلال/ الاستبداد و القهر / الانعزالية و الانطواء/ الحرمان و الافقار بمعنى" الخاجة و خلق الحاجات" / الاحتقار والاهانة و التذليل/ استبدال الأحاسيس والمشاعر "الآلية و التشيوء" والصنمية / التبعية و الانمحاء و التخلف" فقدان الهوية"/ التهجيرو النفي/ المحاصرة و الملاحقة/ التنكيل و التعذيب و الاختناق/ الفزع و الرعب / الارتياب و الشك/ العجز أو التعجيز و عدم الفاعلية/ الاحساس بالغثيان و الخواء و اللامعنى/ الاكراه و الاملاء/ الاحباط و التشاؤم/ الزهدو التصّوف/ الاخفاق و الانكسار و الخيبة/ الأنا المتضخمة / التذبذب و عدم الانتماء / التمزق و الاجتزاء/ الهروب و ردود الأفعال الانفعالية / التلقائية و السلبية

مختلف الاضطرابات العقلية" فقدان الوعي و نوبات الصرع .. الخ "
والنفسية :" المازوخية و الشعور بالدونية السادية و جنون العظمة "
/و فقدان التوازن،بمعنى عدم توكيد الذات، أو توكيدها بسبل ملتوية مزيفة

ويمكننا أن نمضي طويلا في تتبع الألفاظ التي تنضوي تحت مدلول الاغتراب الا أن ذلك لا جدوى منه ،فهي، ان لم تكن جانبا من جوانبه ،لا تعدو أن تكون بمنزلة الصفات لمسمى واحد و السير في ذكر الصفات و تعدادها بحث معجمي أكثر منه استقراء علميا لحركية الواقع التي تنتج الاغتراب . و الى جانب هذا ،ليس في التكرار التعددى للمعاني ما يكفل معرفة بتلك المعاني .. ان من مستلزمات المعرفة الموضوعية أن نتناول مختلف الدلالات و المعطيات في سياق منشئيتها و نتائجها ،كعلة و معلول،و بمنهج جدلي أى في سياقها ،من حيث هي عملية لها جذورها الواقعية ،و ليس الأمر في ان نعالج الأفكار بالافكار و المفاهيم بالمفاهيم ،على الطريقة المثالية .

وفي الوقت الذى نجد فيه ان تعداد المعاني المرادفة ، أو المرادفات المستخدمة لمفهوم الاغتراب على أنه مسيرة لا تنتهي،كذلك هو شأن تناول لمعانيه من خلال الفلسفات النظرية و الفلاسفة فاذا ما استبرنا هذه الفلسفات الايديولوجية أو تلك النظرات التي تناولت " الاغتراب" ، اتضح لنا أنها تذهب في منحيين : اما أن تخضع الاغتراب من حيث هو مصطلح ،لما يتلاءم وتكاملية مذهبها ،وبالمصلة فالاخضاع اكراه و تضييق لشمولية المفهوم ،واما أن تكون النظرات الفلسفية خاضعة للاصطلاح و ناتجة عنه كالوجودية على سبيل المثال.. فهي بهذا فلسفة مغتربة مجزّأة و مشوهة .فضلا عن كون هذه المذاهب على تباينها ،متعدده بما لا يترك مجالا للشك في ان تناولها ضرب من اللاجدوى .

و أخيرا ، اذا كان مصطلح الاغتراب، بهذه الشمولية و الاتساع و الاختلاف في استخدامه على اختلاف جوانب الحياة كافة ،فهل نصدّ عن عرض معانيه ، اذ لايوجد هناك معنى عام واحد للاغتراب .

في واقع الأمر،هذا السؤال سؤال أقرب الى الاختيار،وهو اختيار اغترابي أصلا ،لأن الاغتراب هو الحياة المعاصرة في معظم مكوّناتها و بخاصة ،في العالم العربي، والتي لا يمكن القبض على كامل جوانبها المعبّرة عن الاغتراب،لهذا قد ارتأينا أن نبقى مخلصين لقناعاتنا ازاء هذا الكم الهائل مَنّ الاستخدامات الفلسفية و اللغوية لمصطلح الاغتراب أعني، الانطلاق من ماهية الانسان الكامل وعلاقة التفاعل و التوازن بين الثنائيات المتقابلة ،والتي تشكّل بمجموعها وحدة العالم ،من قبيل: الذات و الموضوع الانسان و الاخرين، الانسان و البيئة وعلاقة التوازن بين الانسان ونفسه يقينا منا ، أن ذلك هو الأقدر على الغوص في تفهّم ظاهرة الاغتراب وسنحاول ألا نفعل أهم ما جاءت به الفلسفات الكبرى،بما يكفل خلق رؤية متقاربة بينها بصورة عامة ليس على منهج الاصطفائية ـ التوفيقية Eclectisme وانما هي محاولة لما نراه أقرب منالا فيما يخص واقعنا العربي المعاصر. وتلك هي بغيتنا الاولى في هذا البحث . وان خامرني احساس مسبق بأن ايفاء الفلسفات حقّها أمر

خارج عن مقدور أي باحث متفرّد وذلك لكبر المسألة وقصر العمر كما يقال من المعاني التي يمكن أن نؤطر فيها مفهوم الاغتراب : ١- الاغتراب كنقيض للحرية ، ٢- الاغتراب كنقيض للسعادة ولكن من المتعذر أن ندرك حقيقة الحرية أو السعادة ... الا من خلال التأكيد الفعلي للماهية الانسانية لانسانية الانسان. وفي الوقت نفسه لانزعم بأننا أحصينا مختلف معاني الاغتراب، اذ ان ذلك غير ممكن، بحال من الاحوال فليس الاغتراب صفة مجردة كما ان هذه القيم المناقضة ليست صفات مجردة أو مطلقة.. وتلك هي طبيعة الحياة ،قانونها الاول،هو الحركة والتجادل.. فهذه القيم ناجمة عن حركية الحياة ،وبالأدق عن حركية انتاج المجتمع ككل،ومتجادلة معها بصورة دائمة فالحرية ،مثلا هي تحقيق فعلي للذات الانسانية (بالمعنى الدقيق لكلمة الذات) الشخصية. الانسانية بمكوّناتها الواقعية فمن خلال هذه الذات المشخصة بعملية العمل الاجتماعية ،نستطيع أن ننظر الى مختلف القيم الجوهرية المناقضة للاغتراب أو المعاني التي تنضوي تحت دلالته ونبقى مع مثالنا الايضاحي " الحرية " لنجد أن فقدانها لدى المرء أو مصادرتها بالقمع والملاحقات والتعذيب ينتهي الأمر به اما الى ١- الانطواء و الانفصال عن المشاركة في الوسط الاجتماعي الذى يعيش فيه .واما الى: ٢- الانضواء و التسليم و التخلي عن تطلّعاته وأهدافه ،والتنازل عن ابداعاته الحرة .

وفي كل من الانضواء و الانطواء نزع لإنسانية الانسان،من حيث هو فاعلية واعية تأبى ان تبقى على نسق واحد.ذلك أن الانسان هو الحياة . فكما أن الحياة لاتعرف الجمود والتنسيق،هو الانسان في تجدد و ابداع أوهكذا يفترض أن يكون وهذ الدلالة الاغتراب ليسا منفصلين فيما بينهما ، (فالانضواء ينتهي الى الانطواء) أو الانضواء يعني الانطواء (بمعنى التقيد و الانعزال عن الفاعلية الفعلية)وهما ، أيضا ،غير منفصلين عن الدلالات الاخرى، التي تخلط القيم الأصلية بقيم مزيفة وتستبدل بالجوهري الادواتي فالمال مثلا ،بدلا من أن يكون وسيلة يصبح السيد المتحكم ،وما يترتب على ذلك من ممارسات لا إنسانية .

ان المسألة الأهم ، التي يقتضي بنا أن نبحثها في مفهوم الاغتراب،قوامها : ماهو جوهر التلاقي والتمايز ما بين الانسان- الانساني (النوعي) ووجوده الفردي، انطلقنا من كلية الانسان (بما تتضمنه من مؤثرات و بواعث ومكونات ومن تلك الحقيقة وحدها ، يتعين علينا دائما أن نحدّد " الاغتراب" وليس ثمة مدخل آخر بزعمي يمكننّا من الاحاطة بمعانيه كتمهيد لتجاوزه .

لهذا فان افتقاد الانسان لأي من مكوناته الأساسية ،يعني أن ثمة خللا في كلية الانسان وتماميته Entirety أعني الذات الفعلية المتناغمة في علاقة الداخل بالخارج / الأنا بالعالم (الطبيعي و الاجتماعي) .فمن خلال كلية الانسان، بصفتها (مجمل العلاقات الاجتماعية) ، اقتضى الأمر دائما في التوجه الى الداخلية ،تصقله ..تصارعه .. أو تكبله عن الفاعلية وتشعره بالعجز عن التواصل من هذا المنطلق، نتبين أن الاستياء و العجز هما ضياع لفاعلية الانسان،كما أن المحاصرات الجانقة شل للابداع الحر، ونفهم أن الأنانية تعبير عن اغتراب الفرد عن النوع وعن التعامل الانساني مع المجتمع و الاخرين، ..وبالمقابل اغتراب عن الذات و انعدام تحقيق شخصيته فضلا عن الأشكال الأخرى، السالفة الذكر، من قبيل: النزعة الاستهلاكية وضياع فوائد العمل

وبالتالي تغريب الانسان عن ذاته ، و الاحساس بضآلته وهامشيته ... الخ

وعلى غرار ذلك، غير مرة أن مختلف المكونات الكلية هي كلية الانسان و انسانيته ، وهي مترابطة فيما بينها بعلاقة جدلية خلاقة ومتوازنة . وليست الحرية و السعادة هما المكونان الوحيدان، و ان كانا انموذجين أساسيين، و انما تكمن في كل تجليات النشاط الانساني، وفي علاقات الانتاج الاجتماعية و الحياتية عموما ، أو فيما يفتت انسانيته من حيث هو انسان ينشد الكمال بفاعلية و اعية كما يكمن جوهر الاغتراب في كل قسر خارجي يملى على المرء ، يستلبه (ماديا وروحيا) ويفقده الاحساس بالأمل وبجدوى الحياة و الانسانية .

ان القول بالذات المحققة ، (بالشخصية) يتضمن الفاعلية الحرّة و القدرة على اتخاذ قرارات مستقلة وتحمّل المسؤولية ازاء ذلك كما يعني القول بالذات المحققة قبلا تكافؤ العلاقة الديالكتيكية وتوازنها بين الذات و الاخرين، الذات و العالم الموضوعي ومثل هذه العلاقة لا تتم للانسان بصورة سليمة ، الا في سياق النشاط الانساني المهدّف بغايات ذاتية جماعية وعلى غرار ما ارتضيناه في معرفة الاغتراب أي من خلال معرفة ما ليس اغترابا من قبيل" الحرية " و" السعادة) نجد أنفسنا بحاجة الى الامر ذاته في تجسيد معنى قولنا " الذات المحققة "ذلك أن معرفة التجريد ، في كل مرة ، ضربا من الضبابية فلنقل لتجاوز ذلك، ان الذات المحققة على خلاف ١- الأنانية التي هي أبعد ما تكون عن الشخصية الانسانية ، وتتلخص هذه النزعة الانفرادية المنتعشة في راهن العصر بقوة ، بتصور مثالي للفرد المجرد- المتعالي على المجتمع و الاخرين كما أن العالم المحيط به هو رهين بتصورات الفرد ١٠٠ وهذا خرق واضح لحقيقة الواقع بدلالة كيفية تطبيق تلك التصورات على الواقع مما يؤدي بالفرد (المتفرد و الواهم) الى الى انتهاج تصرفات مرضية (كالسادية و المازوخية وجنون العظمة ...) ومن خلال تحليل هذه الميول، يتبين، بايجاز، أنها ناجمة أساسا عن فقدان المعادلة الديالكتيكية المتوازنة بين الأنا و عالمه وفضلا عن ذلك "ليست الأنانية متطابقة مع عكسها . ان الانانية نوع من الشره ، وهي مثل كل الشره ، تحتوي على زعزعة نتيجة عدم اشباع حقيقي اطلاقا" (١) و الاناني في كل هذا دائم القلق، "ليس لديه الأمان الباطني" (٢) شره لا يصل، اطلاقا ، الى اشباع ، كما أنه مأخوذ بالخوف "من أن يكون قد نسي شيئا و أنه محروم من شيء . انه ممتلىء بحسد حارق تجاه كل شخص لديه أكثر" (٢)- كما يقول أريك فروم- "و اذا لاحظنا بدقة أشد وخاصة الديناميات اللاشعورية ، سنجد أن هذا النوع من الأشخاص ليس معروفا بنفسه أساسا بل هو يكره نفسه حتى الاعماق" (٣) و مؤدي ذلك أن الأناني بسبب انغلاقه عن العالم الخارجي، وعن الذوات الأخرى التي هي امتداد لذاته ، لشخصيته . . فانه ينزوي خائبا متوجسا يستبدّ به الضجر و "الحسد المسكين" على حد تعبير ماركس (٤) . مثلما يكون في انعزاله عن سياق العمل الجماعي: عن أبعاده الحقيقية- الكلية ، أو عن كل ما يثري تجربته الروحية وعالمه الداخلي . .

---

١)-٢)- راجع أريك فروم ، " الخوف من الحرية ص ٩٨ وما بعدها

٢)-٣) أريك فروم ، " الخوف من الحرية "ص ٩٨ وما بعدها

٤) كارل ماركس ، " مخطوطات ١٨٤٤ "

يعيش ،بتعاليه ،مجرد حياة بيولوجية كأي كائن آخر ،لامجال للجانب الانساني في عالمه . فحين تنقطع الصلة الحميمية بين الداخل والخارج ،أو حين يستغنى عن العالم الخارجي تنحصر الحياة الداخلية الى أخطاء وأمراض .

الأنانية ،اذن ،هي الاحساس بالعجز عن تحقيق الذات ـ الشخصية بصورة فعلية ، هي اهتمام بالجزء من مجمل أجزاء الكل وبتر لجوهر الجزء ذاته عن جذوره ووجوده . ضياع وتشتت بسبب من افتقاد "النفاجي" القدرة على التفاعل الدينامي الخصب مع العالم الموضوعي، اذ انه يقيم لنفسه عالما من التخيلات المرضية المتطرفة . والتي لاوجود لها الافي "يوتوبياته" الواهمة والتي يصدمه الواقع بنقيضها. ان الانسان، بسبب أنانيته ،مسؤول وحده عن سجنه الخاص (٥) وبهذا الانسلاخ يكون مغتربا عن ماهيته الفعلية ،من حيث الانفصال الحاصل بينه وبين نوعه ،كموجود انساني ـ اجتماعي ،وحتى بينه وبين الطبيعة ، كامتداد لاعضوي له ،من جراء الاستغلال اللاأخلاقي للطبيعة وافسادها. فالأنانية هي احدى أخطر آثار التوجه الاستهلاكي، الذى فرزه نظام الرأسمالية المعاصرة ـ والذى تتبعه البلدان التي تدور في فلكها. وبنتيجة هذا الاستهلاك الأوحد سيؤول الأمر أخيرا الى أن يستهلك ذاته ."فالبرجوازية تنتج حفاري قبورها" . وبهذا كله ،ليس الانسان بالانانية هو "أناه" الفعلية : ذاته المحققة ،بل يكون بها "اناء" لنقاط الضعف والهوان، واغترابا عن البناء ،كما هو اغتراب عن الفعل والفعالية . تطرف في الادعاء وتعويض عن ضياع هويته .ولكن "ليس ثمة من اختصارات نفسية لحل أزمة الهوية الا أن يكون في تحويل الانسان المسلوب الى كائن مكتمل الحياة" . في الوقت الذي يكون فيه الأناني كائنا أحاديا نسبيا مجتزأ ،يتكىء على المراءات ،لاعلى الفعل ،في اثبات الوجود وتأكيد الذات.

ب ـ **التبعية والانمحاء**: لايفهم من كلامنا في تسفيه الأنانية ،أننا نحتقر قيمة الفرد ،أوأننا ندعو الى امتثاله وتسليمه السلبيين لآليات النظم الاجتماعية والقيم السائدة بل على النقيض من ذلك تماما، كلما كانت هناك فاعليات متميزة كان التشارك اعمق وأمتن اذ لاينتج المجتمع شخصيات متكررة ،في مطلق الأحوال. ولايعني نبذ الأنانية ،أيضا ،الوصول الى التبعية فكلاهما (الأنانية والتبعية) تعبير عن حالة واحدة هي الانمحاء ،انمحاء الشخصية وعدم تحقيق الذات الفعلية. ففي حين تكون الأنانية تبعية لنقاط الضعف وللأهواء الرخيصة في النفس ،تكون التبعية للآخر أنانية ضيقة ورخيصة أيضا. تؤثر الأمان الانضوائي، وتمايز بين حقيقة الانسان الفردي ـ النوعي وحقيقة الفرد، وبالتالي، الانسلاخ (الاغتراب) عن الجوهر الانساني الفعلية .

وكلاهما أيضا (التبعية والأنانية) تعبير عن فقدان الحرية الحقيقية وتجيسد لإملاء قوى غريبة .

وليس خفيا ،من خلال نظرة فاحصة للمجتمعات العربية ، أن النزعات الأنانية قد استأثرت الانسان العربي المعاصر، وذلك من نتائج الآثار الساحقة لظهور الاستهلاك المتزايد ،من جراء الانفتاح غير المتكافئ على الأسواق الرأسمالية ، أي أن الأنانية الاستهلاكية ،كنمطية للشخصية العربية اليوم هي نتيجة لتبعية عربية كولونية .كما أن التبعية، في جوهرها، نتاج لأنانية طبقية مساومة لضمان مواقعها ومصالحها الخاصة . وهذا

---

(٥) ماري مادلين دافي، " معرفة الذات" ص ٣٨

(٦) أريك فروم ،"ثورة الأمل" ص ١٠٢

هو سر الاغتراب والتمزق المعاصرين ، بل هو عصر التفكك والاوهام والضياع ، ذلك " أن علاقة التبعية البنيوية للامبريالية تضع البرجوازية الكولونيالية في تمزق دائم بين ماهو وهمها الطبقي وماهو الواقع الفعلي لوجودها الطبقي . فبوهمها الطبقي تنزع الى ذلك التماثل بالبرجوازية الامبريالية ، فينعكس هذا الوهم الذي هو - ان جاز التعبير - القوة المنتجة لايديولوجيتها ، بالتمثل الدائم بهذه البرجوازية التي تعجز عن التماثل بها . (٧)

وفي تتبعنا لظاهرة الاغتراب في هذا السياق ، يمكننا أن نرصد حركة التبعية ، وفقا للآتي :

١ - التبعية الكولونيالية " الامتثال " للغرب الرأسمالي ، والانبهار به ، وهذا ماندرسه في الاغتراب المكاني ، والعلاقة غير المتكافئة التي ينجم عنها مركز وتابع ، على شكل غزو ثقافي = ميتروبولي .

٢ - التبعية للماضي ، السلفية " التنسيقية " . وهذا ماندرسه في الاغتراب الزماني وكما أن الاول انبهار فان الثاني تعتيم وانغلاق . ولاغرو أن الانبهار كالعتمة كلاهما يحجب الرؤية الفعلية للحاضر وامكاناته . واذا ماكان النوع الأول " الامتثال " ميلا الى الغرب اغترابا فان النوع الثاني ، الماضوي ، (الذي يرى الحاضر بمنظور الماضي) ، لاالعكس ، يكون " اغترابا " كما يسميه العروي (٨) ، ويخلص الى القول : "علينا أن نقرر أن الاغتراب أسوأ وأحط نوعا من أنواع الاستلاب وان الحملة ضد الاغتراب القائمة على التعميم غير المنطقي والجهل بحقائق الخصم والتي لم تنبن على أي قاعدة قارة ، ماهي الامحاولة للتغطية على تأخرنا الثقافي المتزايد . لقد حان الوقت أن نقول : ان ثمن هذه الحملة مرتفع جدا زمان ضائع ، تخلف مركب ، هزائم متوالية كبيرة وصغيرة ، مكشوفة ومستورة ، وأخيرا انغماس في اللاتاريخ " (٩) فاذا كان الاغتراب أيضا ، تبعية وتقليدا للماضي فان الاغتراب أيضا ، تبعية وتقليد . وفي كليهما اغتراب عن الفعل والفعالية ، من حيث المصطلح موضع التناول .

غير أن هذا لامعنى له ، فيما يبدو ان لم نتبين بواعثه المتجسدة في الاتجاهين والاتجاهان لايعنيان ، في الوقت عينه ، التقابل . وانما هما وجهان لحقيقة وحيدة فمثلما هما ، في جوهرهما ، تغييب للفعالية الانسانية ، هما كذلك في منشئيتهما عن بؤرة واحدة ، قوامها طبيعة البرجوازية الصغيرة ، من موقعها الطبقي - السلطوي السياسي ، وتبعيتها ، بروح المساومة لغايات أنانية ضيقة ، فيما يخص الواقع العربي . فكيف يمكن للذات الفردية أن تؤكد وجودها والفرد الانساني في المجتمع العربي منفي بواسطة السلطة والقهر اللذين هما في أغلب الاحوال سياسيان ، وحياته النفسية سلبية في أساسها ، وهو مبعد عن مسؤولية اتخاذ القرارات ، وموجه الى الاستهلاك من جراء الاشارات الساحقة للسلطة ؟ (١٠) بهذا فقد فَقَدَ العربي "كل أهميته (ان كان له منها شيء علي الاطلاق) " (١١) ثم " ان بزوغ المجتمع الاستهلاكي خلال العقد الاخير قد أدى الى تدهور الموقف ، ولربما يكون قد عجل بتبلور مبتسر لشروط "التشيؤ" (١٢) وهذه بعض من ملامح صيرورة المجتمع الاستهلاكي ، من قبيل الأنانية الضيقة ، التناحر ، والسعي الى خلق

---

(٧) مهدي عامل ، " أزمة حضارة أم أزمة البرجوازية العربية ؟ " ص ١٦٩

(٨) عبدالله العروي ، "العرب والفكر التاريخي" ص ٢٠٧

(٩) عبد الله العروي "العرب والفكر التاريخي" ص ٢١١

(١٠) هشام شرابي ، ندوة "العقد العربي القادم : المستقبلات البديلة" كمال أبوديب مقال بعنوان الابداع الثقافي في مجتمع مجزأ ص ٢٢٣-٢٢٤

(١١)-(١٢) السابق ص ٢٢٤

تبعية جديدة .

ومثل هذه التبعية تتجسد بين أفراد المجتمع، مثلما هي متجسدة بين المجتمعات العربية في تبعيتها الكولونيالية، مما أدى الى تصدّع جوهري للكلية الاجتماعية ولتشكل طبقات واضحة وبالمقابل، كان التصدّع ذاته على مستوى الذات الانسانية الواحدة . والسمة الاساسية، لكل من الذات والبنية الاجتماعية، هي الازدواجية والتبعية والانمحاء .

ولما كانت البرجوازية الصغيرة غير واضحة الانتماء، قلقة، وزئبقية، فقد ترتب على ذلك فقدان التشكل الطبقي أو فقدان الروّية، فكان التجزوّ على نطاق الشعر انعكاسا نوعيا لما هو معيش من تجزوّ حياتي- انساني. حالات من التشظي ومحاولات قلقة دائمة من التجريب غير المستقر أودونما أسس . ولعل ذلك يعود الى ان حركية الشعرية العربية الحديثة، كانت وماتزال، في أغلبيتها على أيدى المثقفين من البرجوازية الصغيرة . ولما كان الشعر الاصيل - كأي فكر أصيل - ثورة على التجزوّ كان" الانفصال القاطع بين المفكر وبين الحاكم، هو القاعدة التي يسير عليها تاريخ البشرية حتى عصرنا الحاضر" (١٣) بيد أن الشعراء المعاصرين، في اغترابهم الاكيد، أمام منهجين:

١ - المنطوي (الانطوائي) والانكسار، ليس أمام الحاكم وانعدام المكانة وقوة البطش فحسب، بل في انعدام قيمة الشعر ومكانته ازاء نمط جديد من الحياة الاستهلاكية .

٢ - المنضوي (الانضوائي) تحت راية السلطة، رهبة من بطشها، أورغبة بعطاياها أو مغالطة للنفس بثورة مزعومة، فهو في كل حالة وباعث، مغترب، بمعنى من معاني الاغتراب.

وبهذا نجد أن انمحاء الشخصية العربية (على مستوى الفرد والمجتمع)، يتجلى، بوضوح، في مختلف العلاقات البطريركية - العشائرية - الدينية القائمة، وفي التبعية والامتثال لقوى خارجية تحاصره وتستلبه من ذاته "في كل مجال من مجالات الحياة يجد الانسان العربي مبدأ الطاعة مفروضا عليه يدفعه الى المسايرة والخضوع والاستسلام ويقضي على كل امكانات التفرد والتمرد في شخصيته" (١٤) ويمكن بنتيجة هذه التربية والمعايير البرجوازية وتوجهاتها الى الاستهلاك والتعالي اللذين يبعدان صاحبهما عن الاغتناء الروحي، عن سياق العمل الجماعي وعن ثراء التواصل؛ ذلك الانسان الذى يرى معيار وجوده في متع الحس وفي تجديد هذه المتع وفي استهلاك السلع واستهلاك ذاته أيضا . ذلك الذى يعمل على أن يفقد ذاكرته وان ينسى ماهيته الحقيقية وسط الصخب والضجيج، ذلك الذي يملأ شعوره بالاشياء الصغيرة بدل أن يجعل من هذا الشعور صحوا ويقظة" (١٥) .

وماتراني بحاجة للقول، في الحاحنا الدائم على العلاقة الديالكتيكية بين الانسان - الفرد والانسان - النوع "المجتمع" أن مانقوله عن البنية الاجتماعية ينطبق على الذات الشخصية، وما نقوله عن الذات ينطبق على المجتمع، بدينامية متفاعلة، من حيث الأطر العامة لكليهما (الانسان والمجتمع)، على خلاف الدرجة والنوع بينهما ليس على غرار الحتمية الآلية، وانما بجدلية العلاقة (حركة صراعها وكيفية ذلك)

---

(١٣) مجلة "الفكر المعاصر" عدد ١٩٦٨/٤٣، د. فؤاد زكريا، مقال بعنوان "نحو عالم يحكمه الفكر" ص ٥

(١٤) د. فؤاد زكريا، "خطاب الى العقل العربي" مقال بعنوان "مرض عربي اسمه الطاعة" ص ٨٢ - ٨٣ . وكذلك في "مجلة العربي" .

(١٥) أحمد حيدر "العطالة والتجاوز" ص ١٠٢ - ١٠٣

ولاينفي هذا أن يحمل النقيض بذور نقيضه بل يؤكده . ووجود النقيض ،بصورة تراكمية يؤدي الى تغير كيفي – نوعي يكتسب خواص جديدة وقانونيات تحقق له وجودا جديدا واستقلالية نسبية . فالاغتراب عن القيم السائدة بمعنى النضال ضد أشكال الاستلاب عامة موقف ايجابي ومناهضة الاغتراب والتغرب السلبيين، اغتراب فاعل،حين تكون هذه المناهضة مبنية على اسس فاعلة ، أي تتفهم علاقة الفرد بالنوع علاقة الذات الفعلية مابين الذات الشخصية والذات الاجتماعية – الانسانية تكون المناهضة ثورة أوارهاصا بالثورة . في الوقت الذي يتحدد اغتراب الفرد فيه ،مهما بلغ شأوه من التمرد فلن يتمكن من تحقيق شيء فاعل ذلك أن فهم العلاقة لايكون فهما علميا – واقعيا ،وانما هو ضرب من الامنيات التي تجذب ،تبهر... وتخبو الى اخفاق. الاخفاق اغتراب ،والادق تكريس له انه استلاب لقدرات الفرد عن جوهرها ودورها الفاعل الى اجتزاء يؤدي به الى خواء،وانعدام لتحقيق الذات .

ان أبلغ استخدام لمصطلح" الاغتراب" يمس جوهر الانسان العربي ،بصورة عامة، هو النقيض الفعلي لتحقيق الذات. فاذا قلنا "بالانفصال" أو"بالتسليم" مع هيجل، أو"بالانفصال عبر التسليم" مع ماركس أو بقية الاستخدامات الاخرى،فاننا نجد انها جميعا تؤول الى نقطة التقاء بيّنة ،قوامها أن الانسان العربي المفكر عموما ،والفنان على وجه التحديد ،يحس باغترابه عن المشاركة الفعالة في صنع القرارات المصيرية ،على الرغم من قدراته الخلاقة وتطلعاته الابداعية الحرة ،وبالاصح لهذه الاسباب يكون محاصرا،منفيا ومغيبا، ذلك لأن الحكومات الطبقية تؤثر المحافظة على مواقعها ،وتخشى التطلعات والتغير،وان كنا نخص الفنان ،هنا ،والفنان الحق،فمرد ذلك الى طبيعة الفنان ذاتها،بكامل خواصها وتخومها. من بنيته الفيزيولوجية – العصبية.. الى صدقه الفني في معانقة الموضوع ومعايشته في أعماقه، الى رؤاه الاستكشافية ،ونفاذ ادراكه واحساسه المشف بالخطأ والخطر .

وفي الوقت نفسه ،لاتكتفي العقلية الطبقية واليمينية بمحاصرة الفنان ،وانما تعمد الى الهاء الناس عن الفن الاصيل والابداع الحق ،بل عن ماهيتهم الفعلية بترويج الفن الرخيص واغراءاته ،التي تسطح الانسان وتصرفه عن عملية الخلق،باعتباره متذوقا متلقيا ومشاركا بالتالي لصيرورة العمل الفني ،هذا من جانب، ومن جانب ثان يغدو الانسان كسولا نافد الفعالية يؤثر أي أمر لايحتاج الى اعمال الفكر . أي أنه يغدو متلقيا سلبيا ليس للفن فحسب ،بل لكل غزو ثقافي . وبالتالي ،تابعا ومغتربا عن ذاته المحققة . وكما أن الأمر لايخص ترويج الفن الرخيص ،بل ترويج سحر الاستهلاك المخادع بصورة شمولية ،كتوجه برجوازي ، وكنمطية للحياة المعيشة ،فلا يجد الفنان الأصيل مكانا له في حركية هذه التشكيلة الاجتماعية ،التي لاترى سوى القيم المادية ومفاهيم الربح والثروة والمصالح الخاصة ، وهذا ما يتنافى،بالضرورة ،مع جوهر الفن والشعر الأصيلين .

ومثلما يكون ذلك متعارضا مع جوهر الفن ،هو كذلك في تعارضه مع جوهر الفنان الانساني،من حيث ان كلا من الفن والفنان– الانسان هو كل لايقبل الاجتزاء. ولما كان الشاعر الحق ارهف الناس في التحليق والتجاوز الى عالم التوحد مع العالم والاخرين،فان القصيدة الحديثة تتوخى أن تكون كلا عضويا متماسكا. وهي غاية أي فن،كما هي غاية انسانية بامتياز،هي صفة انسانية أصلا ولكن ،ماذا يتبدى لنا في قراءة الواقع العربي؟

في الجواب نقول، اضافة الى ماذكرناه من تفاوتات وتناحر، اننا نجد ،في بنية التفكير السائدة ، أن الثنائيات المتقابلة في انفصال حاد،من قبيل انفصال الفكر عن الواقع/ انفصال الاستهلاك عن الانتاج/ انفصال العمل الفكري عن العمل البدني/ الروح عن الجسد/ الرجل عن المرأة/ المدينة عن الريف/ وانفصال الذات عن الموضوع. الفرد عن النوع. الجزء عن الكل "مجموع الاجزاء"../ هذه هي مأساة الثقافة العربية ـ الطبقية ،حالات من التشظي تفتت وحدة العالم والانسان وكليتيهما ،بسبب من غياب التفكير الجدلي أوتغيبه ،واغفال الواقع بايمانية حلولية : بمثالية غيبية تسليمية ،تزج الانسان وتفكيره في دائرة الفراغ والهواجس المرضية ، انها الثقافة الضريرة ،منهجا تزوده البرجوازية الصغيرة لشعوبها ،بغية الاستمرارية في حماية مصالحها الطبقية ، انها البؤرة الاساس التي تجعل الفرد مجتزأ ضائعا "وتحصر نشاطه في الصراع من أجل حماية الذاتيات المتنافية والمرابضة كل منها خلف متاريس ذهنية أكثر منها مادية ووهمية اكثر منها موضوعية ،تحرم من رؤية الخطر أكثر مما تحمي منه .(١٦).

الى ماذا نصل من خلال هذا الانفصال؟

ان الانسان العربي ،بملامحه الأعم اليوم انسان مجزّأ.. نسبي وهامشي.. مغترب الفعل ومغترب الفعالية ،لذا يغلب عليه طابع التطرف والمواقف الانفعالية .

(رفض الغرب وحصره في دائرة الاستعمار فحسب) مقابل (قدسية الماضي والانغماس الكلي بتقليده) ، أو العكس ،فهو قائم ايضا موقف ثنائي ،على غرار كل الثنائيات المجتزأة والسكونية : عرب/غرب أو اعتراب/ اغتراب،ذلك أن في أي منحى منهما ثمة غياب للفعل،للحاضر،للعقلانية ،وللابداع .

وعلى نطاق الفرد ،يكون الامر ذاته في الحدود العامة ،فثمة تعبيران عن نتيجة واحدة هما :التبعية (الشعور بالدونية والتخلي ،والسلبية..) أي التسليم ،والثاني الاحساس بالانا المتضخمة والتعالي والانفصال وفي نتيجة هذين المظهرين علاقة وحيدة ، تتجسد باغتراب الانسان الكلي. اذ في كليهما فقدان التوازن ،تفكك، انعدام للذات الفعلية للشخصية لانسانية الانسان .

ولما كان العمل هو الذي يؤكد وينمي القوى الجوهرية الكمنية ،فان التبعية والتعالي/ التسليم والانفصال،يؤكدان واقع التغرب به ولما كان واقع التغرب كواقع طبقي، مستنبت في التاريخ،فان التسليم لسياسته يؤدي الى الانفصال ـ الاغتراب ويبقى السؤال ملحا :" ما العمل؟".

ان الاغتراب ، اذن مرآة للانكسار بين القائم والواجب ،الواقع والطموح وتدمير للذات الكبرى: (أي البنية الاجتماعية ،والفردية) . او هو بتعبير أدق : عدم توكيد الذات ، أو توكيدها بطرق مزيفة .

---

(١٦) د. برهان غليون" اغتيال العقل" ص ٤١

After seventy two meanings of alienation have been liste d After menfoning 72 meanings of alienation which I came a cross through my readings , I'dlife say that the usage of thes meanings is not so important tous . This is because the ofull acquisition of meanings is not in its dictis many lists but rather it lies in fenouing the motiues which cause d that ; namely alienation .

Since abienation , as it is an abstraction , apprehendes is in it self only hut also by what it is not i,e the essence of the human character , I came to aspecial nation to have I can chave the rincept of alienation defined to fing the ofrantage of different philosophical attitudes. This is infact nat due of E clectism but rather it is an attemst to uieu our Aralic so ciety .

Through fenouning the character : I dentity the achiwe d with its real comsonmfs can realize the reality of alienation so that we arracliato it

By this method I think I refuted R.Schokht's attitude which stated that it is impossipl to have a comshehens in defintius of alienation .

It is a method , as Al Jahez says ! we missed success may be , but we did nat miss rese arch ,

المصـــــادر و المراجـــــع

١ـ حيدر ،أحمد : "العطالة والتجاوز"، وزارة الثقافة ـ دمشق ط١/ ١٩٨٨

٢ـ دافي،ماري مادلين :"معرفة الـــذات" ترجمة تسيم نصير،دار عويدات ـ بيروت باريس ط٣ / ١٩٨٣

٣ـ زكريا ،فوّاد (دكتور) :"خطاب الى العقل العربي" ،سلسلة كتاب العربي ـ الكويت .

٤ـ شرابي ،هشام (دكتور) :"العقد العربـــي القادم : المستقبلات البديلة" مؤسسة الوحدة المغرب

٥ـ عامل ،مهدي : "أزمة حضارة أم أزمة البرجوازية العربية" دار الفارابي- بيروت ط٣ / ١٩٨١

٦ـ العروي،عبد الله :"العرب والفكرالتاريخي" المركز الثقافي،الدار البيضاء،ط١/ ١٩٨٣

٧ـ غليون، بوهان(دكتور) :" اغتيال العقل" دار التنوير ـ بيروت ،ط١/ ١٩٨٥

٨ـ فروم، أريك :"الخوف من الحرية "ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- ط١ / ١٩٧٢
"ثورة الامل" ترجمة ذوقان قرقوط،دار الآداب ـ بيروت ـ ط١/ ١٩٧٣

٩ـ ماركس ،كارل :"مخطوطات ١٨٤٤"،ترجمة الياس مرقص ،وزارة الثقافة ـ دمشق- ١٩٧٠

الدوريات

١ ـ الفكر المعاصر: عدد/٤٠/ يونيو ١٩٦٨